منهج «السوسيو نقدية» في دراسة النصوص الأدبية

ساري محمد
- جامعة تيزي وزو

ظهر مصطلح «السوسيو - نقدية»[1] مع بداية السبعينات في مختلف التدخلات التي تتناول الأدب من منظور النقد الاجتماعي ، ولكن الناقد الفرنسي «كلود دوشي» Clude Duchet هو الذي اشتهر بهذا الاصطلاح . في هذا البحث نحاول الالمام بالمفهوم النظري والاستعمال التطبيقي الذي يعطيه «كلود دوشي» من خلال بعض أبحاثه في هذا الميدان باعتباره المهد لهذا المنهج الجديد .

وحفاظاً على الموضوعية في الطرح نختم المقال برأيين مختلفين يتناولان بالنقد آراء كلود دوشي ، محاولين إملاء ثغرات المنهج السوسيو - نقدية ، النظرية والتطبيقية .

في مقاله الأول حول هذا الموضوع : «سوسيو - نقدية أو تغير حول مستهل كتاب»[2] تساءل كلود دوشي عن مدى استعمال هذا المصطلح الجديد الذي انتشر بسرعة في استعمال كثير من الباحثين .

«هل هو ترقيع لفظي» للإشارة من جديد الى بعض التيارات المعروفة في التحليل الاجتماعي للأدب مثل النقد الوضعي أو الماركسي أو البنيوي ؟

هل هو جمع لتيارات متعددة في الدراسة النقدية للأدب عموماً مثل : «علم المعاجم ، علم الأسلوب ، السميولوجيا ، وأيضاً علم الاجتماع ، وعلم الدلالة ، وتاريخ الأفكار والذهنيات ، التحليل النفسي وعلم الأناسة ...؟ ولتفادي الاختلاط ، آثر كلود دوشي تحديد ميدانين معروفين ، لكي يفتح الطريق للسوسيو - نقدية ويوسع ميدان استقصاءها .

1 - يتكون المحور الأول من «سوسيولوجيا الابداع الثقافي» المنهج الذي استحدثه لوسيان غولدمان Lucien Goldman تحت إسم «البنيوية التوليدية» وهي فلسفة رؤية العالم بمستوياتها الاثنين في تحليل العمل الثقافي : الفهم والشرح .

2 - يتكون المحور الثاني من سوسيولوجيا القراءة والإنتاج الأدبي الذي خصص له أسكار بيت جل أبحاثه بمساعدة جماعة من الدارسين في معهد الآداب والتقنيات الفنية الجماهيرية في جامعة بوردو بفرنسا .

تهدف «السوسيو - نقدية» قبل كل شيء الى التركيز على النص ، سوى النص ، النص كل النص «وهي دراسة اجتماعية للنصوص الأدبية وطريقة جديدة لقراءتها[4] يملك النص الأدبي حدوداً متحركة ، تمتد بين أصغر وحدة لغوية وبين مجموعة معلومة من الكتابات وتتغير طبيعة النص الأدبي حسب الزاوية التي ينظر إليها . من جهة أخرى وبالرغم من اعطاء الأولوية للنص قبل غيره من المعطيات الأخرى فان السوسيو - نقدية ترفض دراسة النص منعزلاً عن اطاره الخارجي ذلك أن مشروعها الأساسي هو «استرجاع المكونة الاجتماعية لنص الشكليين»[5] كما تطمح الى اظهار أن كل ابداع فني وأدبي هو أيضاً ممارسة اجتماعية لأن من وراء كل نص ، نعثر على كل الوسائط والتقعيدات اللغوية التي تكون من هذا النص أدباً .

يواجه النص قراءاً ذوي ثقافة وأصول اجتماعية متعددة ومختلفة . وقبل أن يكتبه الكاتب ويمنح له حركة وحياة ، يكون قد ادركه القراء بطريقة ما متساوية أو مختلفة مع رؤية الكاتب الذي يعتبر بدوره قارئاً لنصه .

ويبين (كلود دوشي) الصعوبات التي تحول دون معرفة القارئ الأول لأي نص ، ولا يمكن اعتبار صاحب النص هو القارئ الأول . يملك النص الأدبي قانونه الاجتماعي الذي يتحكم في ظروف انتاجه لكون شروط الاستقبال تساعد بقسط كبير على انتاجه .

من هنا يمكن القول بأن موضوع «السوسيو - نقدية» هو دراسة القانون الاجتماعي داخل النص وليس القانون الاجتماعي للنص ، فهذا الأخير ليس سوى تجربة اجتماعية عبر واقع متخيل ، غير قابل للاختزال الى خطاب ايديولوجي سائد[6] تهتم مدرسة السوسيو - نقدية بدراسة «النظام الداخلي للنصوص وأنظمة سيرها وشبكة معانيها ، وتوتراتها والتقاء الخطب والمعارف المتغايرة داخلها»[7] يمثل كلود دوشي برواية يدل عنوانها وغلافها وشكلها والجملة الأولى والأخيرة على فهم طبيعتها من هنا يمكن التعرف على نوعية الجمهور الذي توجه إليه الرواية خاصة بالنظر الى الطابع الخارجي للإشهار .

ومثال ذلك رواية «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ ، عند صدور الطبعة الأولى في سنة 1963م في لبنان ، على الغلاف الخارجي الأول صورة رجل شاهراً في يده مسدس والى جانبه إمرأة جميلة في صورة مغرية وكان الناشر يقصد من وراء هذه الصورة الوصول الىأكبر عدد

ممكن من القراء وخاصة فئة الشباب والمراهقين ، حتى ظن الكثير من النقاد وقراء الأدب الجيد أن نجيب محفوظ قد تحول الى تأليف الرواية البوليسية مما أساء الى الروائي في المرحلة الأولى لأن هذه الصورة أبعدت المثقفين عن قرائتها والنقاد عن تناولها بالدراسة .

كما يمكن اعتبار الأوراق المسودة والصفحات المخطوطة كميدان للبحث والاستقصاء ، فهي تساعد على معرفة تطور تكوين النص وكيفية اكتماله منذ الجمل الأولى التي تعبر عن صورة وأفكار مبعثرة ، ومبهمة «النص المقنع» الى غاية التعبير النهائي الذي يصل الى القارئ ليتمتع به (النص العمومي) . للربط بين النص الأدبي وبين النص الاجتماعي يقترح كلود دوشي دراسة «المكانة التي تحتلها داخل العمل الأدبي والآليات الاجتماعية والثقافية للإنتاج والإستهلاك[8] بهذا التعريف تهتم السوسيو - نقدية بدراسة القانون الإجتماعي داخل النص الأدبي أي كيف يعبر النص الأدبي عن واقع إجتماعي معين .

ما هي ، مثلا ، صورة مدينة قسنطينة في رؤية (الزلزال) للطاهر وطار ، الصورة الذهنية لواقع رآه الكاتب بطريقة ذاتية وصورها جمالياً .

بينما يركز الباحث «روجيه فايول»ROGER FAYOLLE أحد الرواد في هذا الميدان على شروط استقبال العمل الأدبي أي كيف تستقبل مختلف المؤسسات السياسية والإجتماعية ومراعياً مختلف الانتقادات التي وجهها له النقاد والباحثون ليحرر رؤية أشمل العلائق القائمة بين النص وبين الاجتماعي . أدرج التحليل المؤسساتي في الحقل الدراسي للسوسيو - نقدية ، مؤكداً على البعد التاريخي الذي يؤسس النص ، أو ينفيه أو يطرده ، أو يهمشه حسب طرق القبول أو الرفض .

الأدب ممارسة إجتماعية ، تتأثر بالمؤسسات الإجتماعية والثقافية ، وترتبط بالسطلة القائمة أي بالايديولوجية المهينة . تتحد هذه الايديولوجية كبعد أساسي للاجتماعية . انها تتولد عن تقسيم العمل المرتبط بين السلطة ، وهي التي تتحكم في إنتاج كل الخطابات الثقافية . وهي شرط ونتيجة في نفس الوقت[9] .

ولدراسة النص الأدبي ، تقترح السوسيو - نقدية التفريق بين ثلاثة عناصر ,بامكانها نقل وتوصيل الرسالة الايديولوجية .

1 - ايديولوجية المنطق : هي تلك الاديولوجية الخاصة بالمجتمع في شموليته إنها تظهر حية في النصوص حتى ان كانت نضالية وملتزمة ، إنها ايديولوجية الطبقة المهينة وقيمها ، سواء أكد الكاتب على أصالة هذه القيم أم أبرز تدهورها أو انهيارها أو زوالها .

2 – المشروع الايديولوجي للكاتب المعلن أو المضمر والذي بواسطته يدافع أو يحارب الايديولوجيا المهيمنة .

3 – ايديولوجية النص ، هذا النص المحول بواسطة كتابته وقراءاته معا ، ونستشف بداخله مظاهر العودة الى الايديولوجية الشاملة المهيمنة أو بزوغ ايديولوجية الانقطاع والمعارضة يبحث هذا المنهج عن اعداد المعنى الأصلي للنص ، وتبيان موقعه الايديولوجي الخاص به دون غيره من النصوص والذي يمكنه تحديد العلاقة القائمة بينه وبين المجتمع الحقيقي ويكون التركيز على القيمة الخاصة بالنص بابعاد العنصرين الأولين اللذين يعتبران خارج النص .

بعد الطرح النظري ، تناول كلود دوشي أمثلة حية من الرواية الأوروبية تدعيماً لمنهجه اهتم خاصة بالبدايات أي الفقرات الأولى من كل رواية ، وركز تحليله على مستهل رواية «مدام بوفاري» لفلوبير .

إن البدء في رواية «جاك القدري» الديدور ، تنظر بشكل أو بآخر ممارسة وإشكالية الرواية في عصر التنوير : «كيف التقوا ؟ بالصدفة مثل عامة الناس وما هي أسماؤهم ؟ وفيماذا يهمهم ؟ من أين جاؤوا ؟ من المكان الأبعد . وأين يتجهون ؟ وهل نعرف دوماً وجهتنا» . ومثله فعل (صاموئيل بيكات) بطريقة أخرى مع الرواية الحديثة في مستهل روايته (اللا مسمى) .

«أين الآن ؟ متى الآن ؟ من الآن ؟ بدون أن أسأل نفسي ، قلت بدون تفكير فيه . وتسمون تلك أسئلة ، افتراضات ، التوجه الى الأمام ، وتسمون ذلك توجهاً الى الأمام» . حيث يحاول الاعداد النصي لكل أسئلة البدء . انه يبحث عن النص في إشكالية النص .

إنما عبر عنه (صاموئيل بيكات) على شكل أسئلة مبهمة ، فان فلوبير الذي ينتمي الى المدرسة الواقعية يجيب عن نوعية هذه الأسئلة في مستهل روايته «مدام بوفاري» .

كنا في القسم حينما دخل المدير ، متبوعاً بتلميذ جديد ، بلباس بورجوازي ، وبغلام المدرسة الذي يحمل مقرءاً كبيراً ، تحمل هذه الجملة عالماً روائياً مؤسساً بحيث لا يمكننا الجزم بأن هذه المدرسة هي المدرسة الحقيقية لمدينة «روان» مثلما صرح بذلك نقاد كثيرون ، هي صورة ذهنية لواقع خاص بفلوبير ، والتي تختلف عن الواقع لمدينة (روان) في عصر كتابة الرواية تطرق كلود دوشي الى الحديث عن العالم ما قبل النص ، لأن النص لا يبدأ أبداً ، فهو دائماً يكون قد بدأ قبل الحرف الأول ، من أين انبثق هؤلاء التلاميذ ، وهذا لمدير وهذه المدرسة فنحن لسنا أمام الواقع بل أمام صورة ذهنية للواقع ، ذلك الواقع المنعكس في ذات الكاتب لا يبدأ هذا العالم داخل قاعة القسم التي يصفها الكاتب مع دخول المدير ، بل يساعد تركيب

النص على التعرف على ما هو خارجه : ضجيج الكواليس والأروقة صمت الفضاءات الادارية وشوشات المدينة والحياة فيها صدى البادية والعائلات ، لكي نكشف عن علاقة الاستمرارية بين النص وما هو خارج النص ، ينبغي العودة بدون انقطاع من الجزء الى الكل ثم العكس .

مع القراءة الأولى ، نكشف فضاء النص المكتوب أين تجتمع شخصيات البدء : التلاميذ ، القسم ، المدير ، القادم الجديد ، الغلام الخادم ، والمقرأ الكبير ، يضجر التلاميذ داخل هذا الفضاء المغلق ، وينتظرون بفارغ الصبر حدوث شيء ما يخرجهم من السأم مثل دخول المدير وتابعه ، لا يوجد هؤلاء التلاميذ في هذا المكان بشكل سرمدي ، بل ينتمون الى مجموعات اجتماعية واسعة ، فضاء غير محدد ولا معرف يمكننا تمثيله بمدينة (روان) مدينة فلوبير ليست المدينة التاريخية المعروفة .

لا يمكننا تصور قاعة درس خارج المدرسة أعطيت الأسماء في غفلة اجتماعية . فهي ليست أعلاماً بل أسماء وظائف مقرونة بالمدرسة : المدير ، التلميذ ، الخادم ...

من هنا يظهر الفضاء المحدد والمعرف بالمدرسة التي تمثل المؤسسة والمكان الطقسي لاعادة إنتاج المعرفة ، كوسيلة للتحول البورجوازي في ذلك العصر .

يرتب الكاتب المدير على رأس قائمة الداخلين بتضخيم الحرف الأول للفظة مدير ، للتعبير على السطلة والمركز الاجتماعي البورجوازي ، بينما يأتي الغلام الخادم في أسفل الرتبة مقروناً بوظيفة حمل المقرأ ووظيفة الغلام الخادم ، ان رموزاً كثيرة موجودة لابراز خصوصية القادم الجديد (الشخصية المركزية) .

لباسه بورجوازي . يصل متأخراً ومرافقاً بالمدير الذي يتقدمه وغلام القسم الذي يحمل مقرأه ، خلفه انه لا يلبس البذلة الرسمية للتلاميذ . في مصطلحات منتصف القرن التاسع عشر ، تعني عبارة «اللباس البورجوازي» ما نعنيه اليوم باللباس المدني ، ولكن كلود دوشي أهمل هذا الإصطلاح القاموسي ، وبنى عالماً كاملاً بالتركيز على التفرقة الطبقية بين التلاميذ وبين القادم الجديد ، حيث أدرج هذا الأخير ضمن الطبقة البورجوازية في نفس المستوى مع المدير . بهذه الكيفية حدد له فضاء خاصاً ، يختلف عن فضاء التلاميذ الذين لا ينتمون الى البورجوازية . ولكننا اذا تتبعنا قراءة الرواية ، نكتشف العكس أي أن التلاميذ هم الذين ينتمون الى بورجوازية المدينة بينما ينتمي القادم الجديد الى فئة اجتماعية أدنى تسكن الريف .

ويتضح ذلك بعدما طفق هؤلاء التلاميذ يسخرون ويتغامزون حول السلوك الريفي الفض للقادم الجديد .

إذاً في هذه الجملة الأولى من الرواية ، لا نعثر على قرائن تكشف لنا الاختلاف الطبقي بين التلاميذ والقادم الجديد ، ولكننا كل ما نعرفه هو جهل التلاميذ لهوية القادم الجديد ، ومحاولته الانتماء الى نفس الحقل الذي ينتمون إليه ، الحقل المحلق بالمدرسة وليس حقلاً مختلفاً مثلما يرى كلود دوشي .

من هذا التحليل ، يمكننا استنتاج الشكل التالي :

ن ـــــ نحن : التلاميذ

جـ ـــــ الجديد

م ـــــ المدير

خـ ـــــ الخادم

أ ـــــ المعلم

بعد هذا التحليل يتضح أننا لا يمكن اعتبار الجملة الأولى من الرواية ملفوظاً مغلقاً ، لأن قراءة ما وراء النص يساعد على تقديم الحكاية ، وهذا التمثيل الأولي هو الذي يعبر عن المضمون الايديولوجي للأسلوب . بهذه الكيفية ، يمكن الكشف عن الوظيفة الايديولوجية الذي يعبر عن «فرنسا البورجوازية في عمل كتابته Flaubertien للأسلوب الفلوبرتي يهدم ويبني بأسلوب مراوغ ، يوهم بالوحدة التي لا وجود لها في الواقع الخارجي للرواية[10] ورغم ذلك ، تبقى قراءة الأسلوب الفلوبرتي منتجة لآراء مختلفة ، حسب نوعية القراءة لأن نقد الايديولوجيا يكمن ضمن ايديولوجية الأسلوب الذي يتحرك تحت ضغط الايديولوجيا التي يعارضها Roger Fayolle ، ننتقل الآن الى رأيين نقديين لمدرسة السوسيو - نقدية (روجي فايول) هو الذي أكد على القراءة الجديدة للنصوص الروائية التي لا يتناولها الباحث كاختصاص في المعنى الدلالي للمضمون على الباحث ان لايهتم فقط بتصوير النص للواقع المعروف خارجه ، أو يتحول الى تقني يترصد أثر البنى الشكلية بحيث لا يرى داخل النص إلا تلاعب الأزمنة والأصوات الساردة ، وعناصر شكلية شتى[11] ، ويتساءل (روجي فايول) عن نوعية النصوص التي تدرسها السوسيو - نقدية ، هذه النصوص المتوارثة عبر الزمن تحت تأثير الاستعمال والذوق وموضة التقاليد المدرسية ان الاختيار تعسفي لأنه بالضرورة سيهمل ويهمش نصوصاً ذات مستوى أدبي مأكد ، ذلك أن هذه النصوص قد تركتها جانباً التقاليد المدرسية المؤسسة من طرف السلطة القائمة . ان النصوص الأدبية تندرج ضمن إطار الصراعات الإيديولوجية وهذه الصراعات الايديولوجية هي التي ترفع نصاً الى مرتبة الروائع الأدبية مراعية مصالحها الآنية . كما يمكن لها

أن تبقى نفس هذا النص في النسيان الكلي بعد فترة من الزمن حينما لا يصبح وجوده ضرورياً لمصالحها . بهذه الطريقة يطالب (روجي فايول) السوسيو - نقدية اعادة كتابة تاريخ المؤسسات الأدبية (دور النشر والجهاز المدرسي) لكي يسهل الكشف عن آليات التأويل المتعددة والمتغيرة حسب الصراعات الإيدلوجية .

لكي يملأ هذا المنهج وظيفته الشمولية ، ينبغي أن يعمل على احياء كل المهمشين والمنسيين القدماء والمحدثين والقاء الضوء الكلي على الظروف التاريخية والسياسية التي وقفت سداً مانعاً ضد ظهورهم ، بالانطلاق من الصراع الايديولوجي كعنصر أساسي Jaque Dubois في التأثير على المؤسسات الثقافية[12] من جهة ثانية حاول (جاك دوبوا) التركيز على بعض نقائص منهج (كلود دوشي) يعيب عليه الاهتمام الأكبر بالنص الى درجة الشك في وحدته وحتى واقعيته .

يقول (جاك دوبوا) بأن (كلود دوشي) لم يهتم بالمضامين المغايرة للايديولوجية المهينة اذ يعتبرها هذا الأخير المؤثر الأول في العمل الأدبي سواء حدث ذلك بطريقة واعية أو غير واعية بهذا المفهوم ، يبقى الأدب مغلقاً ومغترباً في كليشيهات جاهزة ورؤى مشتركة . إن جاك دوبوا لا يقلل من هينة الايديولوجية الرسمية على الإنتاج الأدبي ولكن داخل كل مجتمع ، تظهر نصوص أدبية تعبر عن ايديولوجية مضادة ومغايرة للايديولوجية المهينة والمعبرة عن السلطة القائمة .

ويتم ذلك سواء بوعي كلي من الأديب الذي يعلن صراحة رفضه للوضع القائم ، أو في غفلة عن الوعي الكائن للأديب ، صاحب النص ، مثلما وقع مع بلزاك الذي كان يدافع عن النظام الأرستقراطي الملكي ولكنه داخل رواياته ، بيّن كل عيوبها ونذر بانهيارها وتدهور قيمها كطبقة اقتصادية مسيطرة وبشر بصعود البورجوازيين بصناعاتهم[13] ان الواقع بدوره ، مثلما يظهر موضوعياً ، يؤثر على الإنتاج الأدبي ، خاصة في حالة الأديب الواقعي الأمين ، الذي يتقيد بتصويره تصويراً صادقاً .

وتهتم السوسيو - نقدية بالبلاغة داخل النصوص الأدبية ، ذلك أن هذه البلاغة هي التي تمنح له جماله ورونقه ، وتربط بين حسن الأداء واكتمال المعنى وتساعد على تماسك بنيته .

كما يعتبر هذا المنهج المرجع التاريخي كجزء من النص من زاوية استقبالنا أو رؤيتنا له . بهذه الكيفية ، لا نفصل بين العناصر المحايثة للنص وبين العناصر الخارجية له ، مما يقلل من انصباغ العلاقة بين النص والمجتمع . إن أهم انتقاد وجهه (جاك دوبوا) لمنهج (كلود دوشي) هو

الاهتمام الأكبر بالنص واهمال العناصر التاريخية والاجتماعية وصعوبة الانتقال من بنيـة النص الى بنية المجتمع .

الهـوامـش

(1) مصطلح «السوسيو – نقدية» اقترحه الدكتور سعيد علوش لترجمة اللفظة الفرنسية «socio-critique» .
أنظر : المصطلحات الأدبية المعاصرة : مطبوعات المكتبة الجامعية ، الدار البيضاء ، المغرب 1984 .

(2) Claude Duchet : «socio-critique ou variation sur un incipitin» N°1, p.3-5, 1971.

(3) Roger Fayolle : «la critique colin» collection V, paris 1978, p.224.

(4) Litterature (revue) N°1 1971, (article de Claude Duchet).

(5) Socio-critique (ouv-coll) positions et pres pectives, sous la direction de Cloude Duchet.

(6) سعيد علوش ، المرجع السابق ، ص125 .

(7) المرجع السابق ، ص4 socio-critique .

(8) Claude Duchet : «position et pres pectives, in» socio-critique (ouvrage collectif) ed. Fernand Nathan, Paris 1979, p.3-8.

(9) المرجع نفسه ، ص7 .

(10) Litterature (revue) N°1 1971, (article de Claude Duchet) cite precedemmen.

(11) Roger Fayolle : «la critique colin» collection V, paris 1978, p.225.

(12) Roger Fayolle : quelle socio-critique pour quelle litterature, in, socio-critique, cite, p,215-2216.

(13) Jaque Dubois : sociolagie des textes litterature, in, pensees, N° 215, p.84-94. Sept-Octo 1980.

المـراجـع

(1) Socio-critique : ouv. coll. sous la direction de claude duchet. ed. Nathan, Paris 1979.

(2) Roger Fayolle : «la critique colin» collection V, paris 1978.

(3) Litterature (revue) N°1 1971, (article de Claude Duchet).
cocio-critique ou variation sur un incipit, p.5-14.

(4) Pensees, N°215, paris, Sept-Oct, 1980.
Jaque Dubois : sociologie des textes litteraire, p.82-94.

(5) الدكتور سعيد علوش ، المصطلحات الأدبية المعاصرة مطبوعات المكتبة الجامعية ، الدار البيضاء ، المغرب 1984 .

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية - بن عكنون
الجزائر